***مقاومة الحاج أحمد باي المحاضرة السادسة:***

**نظرة تاريخية حول إدارة أحمد باي قسنطينة**

ان احتلال الجزائر العاصمة وسقوط حكومة الداي حسين، نصب الحاج أحمد باي نفسه الخليفة الشرعي للسلطة التركية والممثل الوحيد للأمبراطورية العثمانية بالايالة. كما أصبح يتلقب باسم " الباشا "، وأعاد تنظيم الادارة بالغاء النظام العثماني الذي لم له أي مفعول شرعي، في حين أخذت اللغة العربية المكانة الأولى بالبايلك، وقام باستحداث مناصب جديدة حسب المقتضيات الادارية. وصار يعتبر أيالة الجزائر العاصمة بروابط روحية ودينية**([[1]](#footnote-1))**. هذا وبعد أن استتب له الأمر، صك الدراهم باسمه**([[2]](#footnote-2))**.

ومهما يكن من أمر، فأن ادارة الحاج أحمد باي، قد تميزت بالجدية والعدالة إلى حد كبير، حيث تجسدت آثار ذلك في تنظيم بايلكه وحسن تسيير ئؤونه. ولم تكن الرعية في عهده تتعرض إلى اضطهاد أو ظلم، يشهد على ذلك ما كتبته جمعية العلماء بصحيفة الميدان بتاريخ 17 أكتوبر سنة 1937م**([[3]](#footnote-3))**، قائله: " ان ادارة الحاج أحمد باي قد ارتكزت على أساس العمل الخيري وحسن الاعتبار والسلطة وكذا شرف الايمان، فكانت الرعاية تحظى في ظل ادارته بالعيش والطمأنينة... بل لم تكن تتعرض أثناء حكم هذا الباي إلى حرمان أو بؤس أو خذلان أو احتقار..". ومما يؤكد ذلك أيضا أن سكان مدينة قسنطينة، بعد احتلال مدينة الجزائر العاصمة، أقروا بضرورة الابقاء على الحاج أحمد عليهم، نظرا للارتياح الذي شعروا به تجاه ادارته وقرارته العادلة**([[4]](#footnote-4))**.

و قد عثرنا علي وثيقة بعنوان الرسالة الثانية حول الجزائر يقول صاحبها الفرنسي الكسيز تاكفيل " في حين ان بقية كل مناطق الوصاية التي تركها الاتراك ولم يحتلها الفرنسيون ، وقعت في اضطرابات عارمة ، الا واحدة مشكلة من حكومة متماسكة في مقاطعة قسنطينة ، و الذي اسس تلك الامارة الصلبة هو احمد بشجاعته و قسوته وطاقاته ، نحن اليوم بصدد البحث في كيفية كبحها او تدميرهاـ" ،" ـــــ و هدا الباي كان كورغلي أي من اب تركي و ام عربية و قد تمكن من كسب المساندة في قسنطينة يدعم من بني جلدة والده و حتي يوسع و يؤسس حكمه حول القبائل المجاورة كدلك لقي مساعدة أقرباء والدته و أصدقاؤهاـ"[[5]](#footnote-5)

***الحاج أحمد باي قسنطينة :***

الحاج أحمد باي قسنطينة (1784-1850) هو آخر بايات الشرق الجزائري ،استمر حكمه كباي مند توليته من طرف الداي حسين عام1826م إلى غاية سقوط عاصمة بايلكه قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1837 ، بعدها قاد المقاومة ضد المحتل الفرنسي إلى غاية استسلامه سنة 1848 ،غير أن الشيء الجدير بالذكر هو أن الحاج أحمد باي إثر سقوط الجزائر العاصمة في يد المحتل، نصب نفسه "باشا" كخليفة للداي حسين واعتبر نفسه الوارث الشرعي لحكومة الداي(24) المنتهية.كما اعتبر نفسه الممثل الوحيد للدولة العثمانية ورفض أي تفاوض مع الأمير عبد القادر بل رفض الاعتراف به[[6]](#footnote-6) .

**علاقة أحمد باي بالسلطان العثماني**

ومما يؤكد وفاءه و إخلاصه للباب العالي، الرسالة التي بعث بها إلى السلطان محمود الثاني بتاريخ 12 شوال 1253هـ /16 جانفي 1839 م يشكوه فيها عدم اتخاذ أية مبادرة من طرفه لإنقاذ البلاد من الاحتلال، حيث كتب يقول :" إن فكرتنا هي الدفاع عن الدين و استكمالنا واجبنا. ومما يبرر هزيمتنا هو استمرارنا على الإخلاص والطاعة لمولانا ( السلطان العثماني )" (26).غير أن الباي لم يدرك أن الدولة العثمانية بموقفها السلبي اتجاه احتلال الجزائر ، فضلا عن عجزها عن الدفاع عن ولاياتها ، جعل منها تقف موقف المتفرج عما يجري من أحداث .

**مقاومته:**

اثر سقوط الجزائر العاصمة، سارع الحاج أحمد باي للعودة إلى عاصمة بايكله، و لكن و هو في طريقه إلى قسنطينة- بلغه أن قبيلة ريغة بسطيف و قبيلة العلمة و قبيلة عامر الغرابة، كلها متأهبة للانقضاض عليه بزعامة المناهض لحكومة الباي، ابن قندوز الذي ينتمي إلى إحدى فروع عائلة أولاد مقران،السابق الذكر،هذه الحركة، استطاع الباي أن يقضي عليها بمؤازرة ابن عبد السلام المقراني، ثم يدخل عاصمته منتصرا على القبائل المتمردة.

كان الحاج أحمد باي قد جمع كل أنصاره من الأتراك الذين قدموا معه من الجزائر، قصد إعداد جيش قوي يمكن أن يعتمد عليه، كما عمل بجدية على تحصين عاصمته قسنطينة، ثم قام ببناء ثكنات جديدة مستوعبا بها جنودا من الوطنيين الجزائريين، ثم نصب نفسه "باشا" كخليفة للداي حسين[[7]](#footnote-7) ـ

**المحاولات الفرنسية لاخضاع الحاج احمد:**

حاولت فرنسا أن تقضي على هذا القطب من أقطاب المقاومة الشديدة ضد الاستعمار، ولكن محاولاتها باءت بالفشل، و التزم الحاج أحمد موقفا عدائيا تجاهها، لقد طلب الجينرال بورمون من الحاج أحمد باي أن يسلم نفسه لفرنسا، و لكن هذا الأخير رفض رفضا باتا، فكانت محاولة فاشلة، تلتها محاولة الجينرال كلوزال الذي اعتقد أنه بمقتضى مرسوم مؤرخ في 15 ديسمبر 1830 يستطيع عزل الباي و منح أحد أشقاء باي تونس الخلافة على بايلك قسنطينة، لكنها كانت أيضا محاولة فاشلة، فضلا عن رفضها رسميا كمشروع من طرف الحكومة الفرنسية.

و لما قدم الدوق دي روفيقو إلى الجزائر لتولي منصب الحاكم العام في 17/12/1831 سعى أيضا لحمل الباي أحمد على الاعتراف بالسيادة الفرنسية، أما المفاوضات التي دارت بين الرجلين بواسطة حمدان خوجة، صاحب كتاب "المرآة" قد باءت هي الأخرى بالفشل الذريع، ذلك أن أحمد قد رفض رفضا قاطعا كل استسلام مخالف لتعاليم عقيدته الإسلامية، ففي رسالة مؤرخة في 14 ديسمبر 1832، بعث بها الباي إلى حمدان خوجة ردا عن المهمة التي كلفه بها الدوق و التي تستهدف استسلامه لفرنسا، حسم أحمد الموضوع، قائلا :"... لقد وقع السؤال منهم سابقا ( الفرنسيون) من أول الأمر و تكرر صدور الجواب منا بعدم الإمكان... و بينا وجه تعسب الأمر (كذا) و تعسره و عدم إمكانه وتعزره، سابقا ولاحقا ولو كنت حاضرا (المقصود به حمدان خوجة) ناظرا لكياتنا وجزيئياتنا و ما عليه أحوال الناس لعلمت مقالنا و أنت بارك الله فيك ذكرت أنك ألزمت بالقدوم إلينا من غير التزام بشيء..."[[8]](#footnote-8).

و نتيجة لعدم استجابة الباي، حاول المستعمر استغلال التيار المناويء لسياسة أحمد لضرب الجزائريين بعضهم ببعض، فقد لجأ الدوق إلى هذه الطريقة كمحاولة لاختصار الطريق قصد الاقتصاد في الدم الفرنسي وتكاليف الحرب؛ إذ شجع كثيرا فرحات بن السعيد للقضاء على حكومة الباي. لكن فرحات طلب من الدوق تكوين حملة مشتركة لتقويض سلطة أحمد. وفشلت تلك المحاولات، بل ظل الباي قائدا للبايلك، بدون منازع(1)، بل إن قبيلة العوفية القاطنة وراء وادي الحراش، اعترضت مبعوثي فرحات بن سعيد إلى روفيقو، فقام هذا الأخير ليلة الخامس من أفريل 1832 م بذبح القبيلة عن آخرها أثناء نومها، و قبض على شيخها، الشيخ الربيعة و أعدمه في الحين.

حاول المستعمر أيضا استغلال عداء بعض شيوخ القبائل للحاج أحمد، وترغيبهم في القدوم إلى العاصمة، من ذلك مثلا، محمد ابن أحمد الغضبان، شيخ أولاد عبد النور والمرابط سي الحسين بن عزوز من أولاد بن عزوز بالزاب الظهري، وغيرهما كما فكر الجينرالات الفرنسيون في استدراج وجلب عائلة ابن جلاب بتوقرت لتكوين حلف ضد الباي ولكن هذه المحاولات لم تفلح كذلك[[9]](#footnote-9).

**احتلال مدينة عنابة :**

في 21 جانفي 1836م، قام كلوزال بإصدار أمر إلى المملوك يوسف للذهاب إلى مدينة عنابة، حيث شن غارات وحشية على السكان، بلغ فيها إلى درجة قتل الأطفال و النساء والشيوخ كان المملوك يوسف قد شجع كثيرا الماريشال كلوزال لشن حملة على مدينة قسنطينة، فبدأ العمل على إعداد الحملة الأولى في نوفمبر 1836 م و التي انتهت إلى فشل ذريع تاركة آثارها الوخيمة، ماديا ومعنويا في نفسية المستعمر، كما ترتب عليها تعويض الماريشال كلوزال بالماريشال دامريمون، ذلك أن تلك الحملة، قد فوجئت بمقاومة شديدة قادها الباي أحمد بحماس، شّد أزره الكثير من القبائل القسنطينية.

حاول دامريمون، في البدء التفاوض مع الحاج أحمد، طالبا منه، الاعتراف بسيادة فرنسا و تقديم ضريبة سنوية، لكن الباي رفض تلك الاقتراحات.

و هكذا استطاعت فرنسا أن تتفرغ كليا لتكسير هذا الدرع القوي، خاصة بعد اتفاقية تافنة (ماي 1837) بين المستعمر و الأمير عبد القادر التي بمقتضاها، تم إيقاف القتال بين الطرفين، هذه الاتفاقية عارضها بشدة الباب العالي[[10]](#footnote-10).

كان الحاج أحمد على علم بكل التحركات الاستعمارية و الاستعدادات لشن حملة أخرى على مدينة قسنطينة، فأعد العدة واستعد لذلك ، كما أرسل المارشال دامرمون إلى السكان بقسنطينة، برسالة تعهد زائف ووعود كاذبة- حيث سبقها في ذلك مثل الجزائر العاصمة-، يتعهد فيها باحترام مقدساتهم الدينية و ثرواتهم ـ وصلت الحملة الفرنسية إلى سطح المنصورة في 5 أكتوبر 1837[[11]](#footnote-11)، كان الحاج أحمد، قد أسند مهمة الدفاع عن المدينة إلى ابن عيسى، حيث واجهت قوات العدو مقاومة عنيفة، لقي فيها الماريشال دامريمون، مصرعه في 12 أكتوبر و كذلك قائد الأركان بيريقو. ليخلف دامريمون الكونت فالي في القيادة.

**احتلال مدينة قسنطينة**:

دخل العدو إلى قسيطينة دخول الفاتح الفاتك فعاث فيها فسادا، و أجبر أهلها على الذل و الهجرة و سكن الجنود الأعداء في دور أهل البلاد وسكن قوادهم في الفيلات و قصر الباي، و استولوا على أموال الإقليم و نصبوا واحدا من عائلة الفكون (و هو حمودة الفكون) في وظيفة قائد المدينة، و أنشأوا هناك (مكتبا عربيا) و وزعوا مسؤوليات على بعض أعوان الحاج أحمد السابقين. كان سكان قسنطينة سنة 1837 حوالي ثلاثين ألف نسمة، فإذا بسكانها المسلمين لا يتجاوزون عشرين ألفا سنة 1845[[12]](#footnote-12). و إذا بالجاليات الأوربية تتزايد و تتضخم وقسمت المدينة إلى حي عربي و حي أوربي، لتبدأ رحلة الاستيطان.

فكر المستعمر- بعد احتلال مدينة وقسنطينة- في إخضاع القبائل و السكان لسيطرته، لذلك نجده يتبنى سياسة مشوبة بالحيطة و الحذر، تستهدف المحافظة على الوضع الراهن و تجنب كل اصطدام بالجزائريين، و بالرغم من احتلال عاصمة بايلك الشرق، فان هذا الاحتلال لم يحقق تقدما استعماريا ملموسا بالبلاد، بل ظل جزئيا، يقتصر، فقط، على الشريط الساحلي، بالإضافة إلى العزلة التي كان يعيشها، فإن المقاومة الشعبية تزداد إتساعا في كل أنحاء البلاد[[13]](#footnote-13).

لم يرضي الحاج احمد بأن تبقي عاصمته تحت الاحتلال لدلك جمع ألف فارس وعدد كبيرا من المشاة وعسكر بسهل طاقة على بعد 25 ميل من مدينة قسنطينة، في شهر أكتوبر 1841م استعدادا لشن حملة على العدو. علمت السلطات الاستعمارية بذلك، فجهزت قواتها تحت قيادة الجنرال نقربي و خرجت في طابور ضخم، دارت المعركة بين الطرفين على أشدها، قتل فيها تسعة جنود من قوات المستعمر و جرح 82 من بينهم ثلاثة ضباط، في حين نهب العدو و أخذ من المواشي عددا كبيرا، أما الباي فقد انسحب، بعد ذلك إلى الأوراس لإعداد العدة [[14]](#footnote-14).

في نهاية سنة 1843، تم تعيين الدوق دومال لقيادة مقاطعة قسنطينة، فركز العمل لوضع حد لمقاومة الحاج أحمد التي أرهقت القوات الغازية و عكرت عليها صفو الحياة و جو الاطمئنان، انطلقت المعركة بين الطرفين بالأوراس في ربيع سنة 1844 م، حيث استطاع الباي أن يباغت العدو فينقض عليه، في حين تخلى الدوق عن المعركة و سارع للالتحاق بمدينة بسكرة،ذلك أن خليفة الأمير عبد القادر، أحمد بلحاج قد هاجم الحامية الفرنسية المقيمة هناك، محدثا بها خسائر كبيرة في الأرواح و العتاد[[15]](#footnote-15).

**اتصالات الباي لزيادة نشاط المقاومة :**

و لمضاعفة المقاومة، كثف أحمد باي اتصالاته من جهة أخرى بعناصر بارزة ذات تأثير و نفوذ بالبايلك، من ذلك مثلا، وكيل الباي في السابق ابن قشي، و الميهوب، شيخ زاوية طولقة، و غيرهما. هذه الاتصالات كانت تستهدف البحث عن مخرج للتخلص من هذا الاستعمار الغاشم، كما كان في تلك الفترة، الكثير من قبائل الجنوب القسنطيني، قد أعطت ولاءها و مساندتها المطلقة للباي ضد العدو، مما أدى إلى تفاقم الوضع و تخوف فرنسا من اندلاع ثورة شاملة، لذا قام الجنرال بيدو الذي خلف الدوق دومال في ماي 1844م بإعداد حملة عسكرية ضخمة و هاجم على حين بغتة القبائل حليفة أحمد و هي على التوالي: قبيلة أولاد داوود، أولاد عبدي وأولاد ودجانة[[16]](#footnote-16).

ومهما يكن، فان أحمد باي لم يفشل في محاولة تعبئة القبائل ومواصلة الكفاح ضد المستعمر، بالرغم أيضا من الحالة المزرية التي كان يعيشها، من عدم الاستقرار والمعاناة اليومية.

كان ضباط المكاتب العربية- آنذاك- قد كلفوا من طرف السلطة العليا بمتابعة تحركات أحمد واتصالاته. هذا في الوقت الذي سارع فيه النقيب بواسني - رئيس إدارة الشؤون العربية بقسنطينة- لإخطار حكومته عن وصول رسائل من سلطان القسطنطينية إلى الباي « ... تبشره بإعادة تنصيبه كباشا للجزائر، مشجعة إياه على إعلان هذا الخبر بين العرب المخلصين له» ، إلا أن تركيا لم يكن بإمكانها ذلك ولا تستطيع أن تفعل شيئا، سوى تقديم بعض الوعود للباي[[17]](#footnote-17).

بدأت السلطات الاستعمارية تعمل أكثر من ذي قبل للقضاء على مقاومة الحاج أحمد الذي بات وجوده بالأوراس يهدد كيانها الاستعماري. و في هذه المرة، تم اكتشاف شبكة من الاتصالات واسعة النطاق كانت تجري بين الباي وبعض الشخصيات القسنطينية المثقفة وغيرها، لإعداد العدة للانقضاض على العدو. من بين تلك العناصر: المفتي المالكي، سي الحاج مبارك، المفتي الحنفي، ابن فتح الله وكيل بيت المال، سي علي بن النوي ...الخ، الأمر الذي دفع بالمستعمر إلى « الضرب بعنف لتهدئة الرأي العام الشعبي الثائر» ضد الاحتلال. ذلك أن القبائل، كانت تنتظر اللحظة الحاسمة لتفجير الثورة.

- **نهاية الحاج أحمد:**

شعر الاستعمار الفرنسي بقوة هذا الرجل وصلابته في الدفاع عن دينه ووطنه، لذلك سخر كل ما عنده من عدة وعتاد لوضع نهاية لمقاومة هذا القطب. كان الباي أحمد- وقتئذ- مقيما بالأوراس. ولقد « بات من الصعب استسلامه للسلطة الاستعمارية». لذلك حاصرت القوات الفرنسية من مختلف الجهات بلاد الأوراس طيلة شهر ماي وبداية جوان عام 1848م كان العقيد كونروبار والنقيب سانت- جارمان يشرفان على تنفيذ العمليات العسكرية، في حين تعسكر النقيب ديبوسكي بالزاب الشرفي ما بين وادي منصف وزريبات الوادي. في تلك الفترة، لم تكن حالة الباي الصحية والعسكرية تسمح له بمواصلة الكفاح، بالإضافة إلى أن معظم القبائل هناك قد حوصرت حصارا شديدا فلم يعد بمقدورها مؤازرته أو حمايته، فاضطر، بذلك، إلى طلب الأمان مذكرا السلطة الفرنسية بـ « سمو معاليه في السابق من أجل أن يعامل بشرف».وتم استسلامه يوم 5 جوان من نفس السنة.

إثر استسلامه، مكث الباي بمدينة بسكرة تحت مراقبة السلطة الفرنسية مدة يومين، ثم نقل في اليوم الثالث إلى مدينة قسنطينة : « وفي أثناء الطريق استحوذت (أي الباي) علي أفكار متعددة: أنني أذهب بلا أملاك ولا قوة إلى المدينة التي رأتني سيدا في أوج عزتي وحيث مارست سلطة السيادة، ولكن الله كيف نفسي وتجلت إرادته. وأي إنسان يستطيع الإفلات من أيدي القدر فسبحان الله وجل جلاله».

وهكذا، وبالرغم من الوعود التي قدمت له من طرف فرنسا، فقد أجبر الحاج أحمد باي على الإقامة الجبرية بمدينة الجزائر تحت رقابة المستعمر، دون تحقيق أي وعد منها. فلقد راسل أحمد النقيب دي نوفو، مدير الشؤون العربية بقسنطينة، طالبا منه السهر على جميع ثرواته وأمتعته، التي تركها إثر احتلال قسنطينة. كما كاتب الحاكم العام شانزي حول هذا الموضوع بتاريخ 2 مارس 1850م ، ولكن دون جدوى، إذ اعتبرت السلطة الاستعمارية أن الاستجابة لمطالب الحاج أحمد، ستكون لها انعكاساتها السلبية على السياسة الاستعمارية لذا خصصت له منحة سنوية لسد حاجاته ومصاريفه الضرورية، إلى غاية وفاته عام 1850م.[[18]](#footnote-18)

1. **()** – A. Temimi,le Beylik de Constantine elhadj Ahmed bey 1830-2837,Tunis, 1979, p. 63. [↑](#footnote-ref-1)
2. **()** – A. Dournin, op. cit., p.116. [↑](#footnote-ref-2)
3. **()** – A.O.M., 11h49: EL-MIDEN. Du 17 octobre 1937 .نقلا عن فردوس صالح الحاج احمد بأي.ص 22 [↑](#footnote-ref-3)
4. **()** – A. Dournon, Constantine sous les turcs d'après Salah El-Anteri, in,R.S.A.C,1928-1929,Constantine, 1930p. 113. [↑](#footnote-ref-4)
5. ـAlexis tacqueville, deuxième lettre sur l'Algérie1837 ,document réalisé par Jean MarieTrembly [↑](#footnote-ref-5)
6. ـ فركوس صالح،الحاج احمد باي 1826ـ1850،د.ن.ت.ع، ص 55 [↑](#footnote-ref-6)
7. صالح فركوس ، المرجع السابق ، ص 145 [↑](#footnote-ref-7)
8. - A.O.M , 1H2, Lettre inédite du Hadj Ahmed Bey à Sidi Hamdan Khodja en date du 27 Rabiah El-Aoual 1248 H/ 14 décembre 1832نقلا عن فركوس صالح ،المرحع نفسه ، ص 145 [↑](#footnote-ref-8)
9. ـ ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص56 [↑](#footnote-ref-9)
10. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص61 [↑](#footnote-ref-10)
11. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص62 [↑](#footnote-ref-11)
12. ـ أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، الجزء الأول، ش.و.ك، الجزائر 1992، ص. 221 [↑](#footnote-ref-12)
13. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص66 [↑](#footnote-ref-13)
14. - Féraud : Le Sahara de Constantine .. , p. 344 – 345. [↑](#footnote-ref-14)
15. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص80 [↑](#footnote-ref-15)
16. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص81 [↑](#footnote-ref-16)
17. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص83 [↑](#footnote-ref-17)
18. ـ فركوس صالح، الحاج احمد باي ،المرجع السابق، ص85 [↑](#footnote-ref-18)